**ليفيناص: الفينومينولوجيا بما هي ايتيقا.**

يعتبر ليفيناص **LEVINAS (E) 1995-1905** الممثل الوحيد للحركة الفينومينولوجية بفرنسا . إذ كان أول من ادخلها إلى الجامعات الفرنسية ، ومكن فلاسفتها أمثال: سارتر (ج) **Sartre (J-P)** و ميرلوبونتي (م) **Merleau –Ponty (M) من** الاضطلاع على فلسفة مؤسسها هوسيرل (1) **Husserl (E)** حيث تأثر ليفيناص شديد التأثر بفلسفة هذا الأخير . بالإضافة إلى الحضور البارز لفلسفة هيدغر (م**) Heidegger ( M) ( 1976 – 1889)** لكن لم يكن هاجسه من وراء هذا التأثر البالغ تكرارا لفلسفة هذين العلمين وإنما توجه منذ بدء التواصل معهما بالقول بضرورة نقدهما . ومن تم تمكن ليفيناص من التأسيس لفلسفته المميزة لمساره الفكري ، فكان يرتكز على تعميق تحليل دلالة العلاقة بالإنسان الأخر **L’autre homme ،** ورأى في هذا التوجه المهمة الأساسية لكل تفلسف على الإطلاق . لم يكن بهمه إقامة النظريات الفلسفية للمعرفة وإنما سعى جاهدا لأجل فهم العلاقة مع الأخر باعتبارها العلاقة الأصيلة التي تقوم على أساسها كل العلاقات مع الوجود. المهم أن نكون قادرين على احترام غيرية الأخر، و الكف عن اختزاله، و تبسيط دلالاته. و دلك بإفراغ محتواه داخل هوية الأنا . أي داخل المفاهيم وأنظمة المقولات التي كثيرا ما رأت فيها الفلسفات التقليدية مهمتها الأساسية، معتقدة بأنها تمكنت من خلالها فهم علاقتها بالعالم فهما شاملا.

إن الذي يبدو أكثر أهمية بالنسبة إلى ليفيناص هو الانفتاح على علاقة التذاوت **intersubjectivité**  والعلاقة بالإنسان الأخر ، حيث تتجلى الغيرية عبر وجهيهما**visage** ومن تم تمثلت الإتيقا **éthique** منذ أعماله المتقدمة باعتبارها الفلسفة الأولى . هنا تكمن المهمة الأساسية للفلسفة حيث ستبدأ مع ليفيناص بانجاز تمرين فلسفي مغاير غير ذلك الذي اعتادت عليه الفلسفات التقليدية منذ اللحظة الإغريقية إلى غاية هيدغر. ففي نقده للشمولي**totalité**  المفهوم المركزي القائم عليه عمله الرئيسي " الشمولي واللانهائي" t**otalité et infini** الصادر سنة **1961** ثمة إحالة إلى نقد شامل لتاريخ الفلسفة، تاريخ بإمكان تأويله إلى كمحاولة تركيب شمولي ، كتبسيط واختزال لكل تجربة و لكل ما هو مدرك كشمولية حيث يلامس الوعي كلية العالم، ولا يترك من وراءه شيئا مع سعيها لامتصاص كل ما يتواجد خارجا، لتغدو تفكيرا مطلقا. إن وعي الذات هو في الوقت نفسه وعي للكل، لكن داخل هذا التوجه كان يوجد بعض الاحتجاجات على هكذا رؤية في عمق تاريخ الفلسفة بحيث يمكننا الإشارة إلى أن المسيرة الكبرى للفلسفة الغربية انتهت في الواقع إلى الفلسفة الهيغيلية ، التي تظهر في حد ذاتها كنهاية واكتمال للفلسفة عينها.

إذا تجولنا بداخل الحضارة الغربية يقول ليفيناص " فانه سنجد كل من الروحاني والعقلاني يتواجدان باستمرار داخل حركة المعرفة وبإمكاننا رد مثل هذا الحنين القائم بينهما إلى نزوعهما الشمولي، وكانتا أمام شوق نحو امتلاكهما على أساس انه ثم ضياع انعكس على رؤيتنا إلى الفكر عموما . فتم النظر إليه باعتباره خطيئة الروح في حين كانت الرؤية ال"بانورامية" للواقع هي تمثل الحقيقة." هذا ما جعل ليفيناص يتوجه نحو القول أن التجربة المتعذر اختزالها مقيمة هناك **au-delà** بعيدا ، وليس موجودة أبدا في التركيب المنجز من طرف الفكر. ويحدث لها التواجد في الوجه لوجه **face a face** بين البشر وذلك داخل الاجتماعية **socialité** في دلالتها الأخلاقية. لكن لا يجب حسب ليفيناص فهم هذه الأخلاقية بأنها جاءت لتعكس الطبقة الثانية أي تأتي بعد التأمل المجرد، وتحت عملية التنظير. للأخلاقية **moralité** استقلاليتها وأولوياتها لأنها الفلسفة الأولى ، مجاوزة بذلك كل تفكير فلسفي قام يفلسف قضايا مرتبطة بالوجود . إن المتعذر عن التركيب أو لنقل اللا تركيب ينعكس بالضرورة على العلاقة القائمة بين البشر، فالوحدة الحقيقية أو الجمع الحق لن يكون جمعا تركيبيا ، وإنما هو جمع و وجه لوجه.

لقد سعى ليفيناص من اجل إظهار فلسفته المتميزة باندفاعه الجدري نحو نقد الفينومينولوجيا الهوسرلية من جهة،و الانطولوجية ال"هيدغرية" من جهة أخرى، ناظرا إليهما باعتبارهما من الفلسفات التي كرست الخط الميتافيزيقي التقليدي. لان فلسفة المعلمين ( هوسرل وهيدغر) لم تخلص الآخر من تبعيته ل"عينه" . ويعتبر المفهوم الشمولي من المفاهيم الدالة و بقوة على مثل هكذا تورط: إن مشروع الفلسفة الغربية يقول ليفيناص هو مشروع خاص بالرد إلى الشيء نفسه ، لأها كانت تصر دائما على فهم كل شيء من خلال وصفه و هو في علاقة مع كل ذاتي الوضوح ، سواء كان صورا أفلاطونية ، أو جواهر أرسطية أو عقل الهي لفلسفة العصور الوسطى أو مطلق هيغل أو "مونادا" ليبنتز .

أكد العديد من الفلاسفة بمكانة الغيرية **altérité** بأنها تكمن خارج الكل -أي الشمولي- إلا أنهم كانوا يلحقون فهمهم لها من خلال العلاقة مع الكل. إن مثل أفلاطون لها علاقة وثيقة بالإشكال وتمكين لمادة أرسطو الأولية.و تتطلب الكائنات المتناهية خالقا ( إلها) ، وتفهم نقائض هيغل دائما داخل بحث تركيبي لاحق.

وعليه لا يمكننا والأمر على هذا الوضع الجزم مع الفلسفات التقليدية بالقدرة على إمكان وجود شيء ما قادر على استيعاب وبصورة فعلية كل الواقع وعلى الرغم من كون ليفيناص بأخذ بفينومينولوجيا هوسرل ممثلة في منهجا، إلا انه يرفض الأخذ بالرد **réduction** خاصة لحظة توجهه نحو الكشف عم يمكنه من استيعاب الآخر .

سيكون هدا الأخير مدركا حتى و إن كانت الحقيقة منظورا إليها باعتبارها ذلك المتعذر عن التناهي. لكن على الرغم من ذلك سيبقى وعدا يترقب بلوغ حقيقة أكثر اكتمالا وأكثر تطابقا ، إذ مما لا شك فيه فان الكائن النهائي الذي نحن عليه لا يمكنه في نهاية المطاف إكمال مهمة المعرفة ، في حين تتطلب فكرة اللانهائي حسب ليفيناص أن يكون الفكر لا عادل لان العلاقة مع اللانهائي لا تمثل المعرفة وإنما تعكس الرغبة، لقد حاولت يقول ليفيناص: " وصف الاختلاف الكامل بين الرغبة والحاجة وهذا بالنظر إلى الرغبة باعتبارها الحالة التي من الصعب أن تنتهي إلى الإشباع ، وإنما تتغذى بكيفية أخرى من عوزها".

من هذا المنطلق يمكننا القول أن الفلسفة لدى ليفيناص جديرة بان يطلق عليها اسم الفلسفة السائرة **Philosophie en matche** إذ يبدو من الصعب التأكيد على الانتماء المطلق لليفيناص إلى الفينومينولوجيا على الرغم من وجود قراءات عديدة تؤكد ذلك . إلا أن الاتجاه المهيمن داخل فلسفته يختلف في الواقع كل الاختلاف عن الحركة الهوسرلية ، بالإضافة إلى ذلك يعارض ليفيناص بصراحة هايدغر وانطولوجيته الأساسية ، ونجده في الوقت ذاته يضع مسافة بينه وبين كل من سارتر وميرلوبونتي.

نحن نعلم أن لفضل يرجع إلى هوسيرل في إعلانه عن ميلاد الفينومينولوجيا **(** **1900-1901)** و ربما سيكون من موقع تمييز وجاهة وأصالة الفلسفة الليفيناصية القول أن هوسيرل و هيدغر ينخرطان ضمن ما ينعته ميشال هنري **Michel** **Henry** بالفينومينولوجيا التاريخية **Ph. Historique.** ويعتبر هوسيرل الفيلسوف الذي اثر بصورة عميقة في ليفيناص إذ درس هذا الأخير ولمدة سنة بجامعة فرابيورع . لكنه لم يشارك إلا في حلقة درس واحدة التي كانت تحت إشراف هوسيرل، فعلى الرغم من قلة متابعة ليفيناص لدروس هدا الأخير إلا أنه احتل المكانة الرفيعة لديه، اثر لم يمنع ليفيناص من التوجه نحو نقد الفلسفة أستاذه، حيث أعلن من البداية عن وجود بعض التحفظات التي أشار إليها في أطروحته الموسومة ب نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل. التي ناقشها سنة **1928** بجامعة ستراسبورغ ، ومن أهم الاعتبارات النقدية المعتملة من طرف ليفيناص نجد على سبيل المثال لا الحصر

1. الاعتبار الخاص بمثالية النظرية المهيمنة على فكر هوسيرل مثالية فو-زمانية **supra temporelle** التي اعتقد بصلاحيتها الأبدية ، و تظهر من خلالها الفلسفة مستقلة، بعيدة كل البعد عن وضعية الإنسان التاريخية. ومنه سيكون هوسيرل قد أنجز نوع من التفريق والقطع مع الوجود العيني للإنسان مع زمانه وحياته الاجتماعية وكان لحظتها النموذج الهندسي المهيمن على مثل هكذا رؤية من خلال الكيفية التي ندرك بواسطتها الحقيقة وتعود تحديدا إلى أفلاطون والى العقلانيون.
2. الاعتبار الذي يضع النقد موضعا آخر بحيث يحيلنا إلى تفكير وعقلانية الرد الفينومينولوجي الترنسندنتالي ، وتمثل عقلانية هذا الأخير النقطة الثانية التي مكنت ليفينا صنت التوجه بالنقد الى هوسيرل .إذ من خلال هذه الميزة لا نتمكن من الوصول إلى تغيير وبصورة جذرية موقعنا تجاه الواقع وتجاه العالم عموما . وبموجب أسبقية وأولوية النظرية لم يتمكن هوسيرل من طرح السؤال معرفة كيفية التي نجد من خلالها حيادية حياتنا. " لحظتها ستعرف الفلسفة بدؤها مع الإرجاع باعتباره الفعل الذي نرى حياتنا في كل خصوصيتنا العينة وذلك بداخل المكان الذي لا تتواجد فيه، هنا يكمن امتياز البحوث المنطقية الهوسيرلية لكن إذا نظرنا بعمق إلى هذه التأكيدات المنجزة داخل فلسفة هوسيرل والتي ترى في الرد السبيل الوحيد الذي يمنح لنا إمكان التوغل إلى الفينومينولوجيا فان مثل هكذا وجهة تحتاج هي الأخرى إلى إمعان النظر الفكري.

إن الفينومينولوجيا هي أكثر من فلسفة في الوعي، أو في المعرفة فهي لم تعرف بدؤها إلا عندما عصفت الأزمة على العلوم وعلى الفلسفات الأوروبية. لهذا سيجد المشروع الهوسيرلي يضع نفسه موضع المعالج للازمة، أزمة سادت من **1840** إلى **1935** حيث كان من غير المعقول لحظتها الوقوف موقفا سلبيا تجاهها. فراح جيل بأكمله من الفلاسفة يسعون من اجل البحث عن الحلول المناسبة. منطلقهم في دلك مسلمة مفادها أن أزمة هي فبل كل شيئ أزمة ميتودولوجية . أزمة خاصة بمناهج العلوم ، فنظرة بسيطة على المناخ العلمي والثقافي اللذان عاصرهما هوسيرل يتبين لنا انه لم يكن مترددا في تقديم أبحاثه المنطقية في مشروعه التمهيدي والذي كتبه سنة **1913** بأنها ال"عمل الفاتحة " **œuvre** **percée**.

إن قراءة متمعنة لنصوص ليفيناص الأولى التي جسدها في أطروحته: نظرية الحدس في فلسفة هوسيرل **( 1928)** تظهر أن اكتشاف فينومينولوجيا قصدية الوعي سمحت بمنح الامتياز للممارسة على النظرية ، بالكيفية التي يصير من خلالها الواقع معطي للذات العارفة. لكن معطى مباشرة من دون وسائط مع ضمان الأرضية الموضوعية المنخرطة داخل الوجداني **l’effective.** فالنظرة العامة التي يوجهها ليفيناص إلى الفينومينولوجية تبرر من للوهلة الأولى أن المقاربة الهوسرلية تبدو متمكنة من معرفة وضعية العيني. هذا ما يقوي مجددا الفكر القائلة بعدم انفصال الفكر عن الحياة. و تلعب الوظيفة الإحالة إلى الحياة دورا أساسيا في النطاق الذي يغدو فيه كل اتصال بموضوع متمثل **représentant** يرتبط بلزوم هذا الأخير أي التمثل ، وثمة إلزامية الظهور أمام الوعي . طيعا لا ينطبق هذا المبدأ الفينومينولوجي على إعطاء المواضيع الحسية وذلك من خلال الأفعال الإدراكية والحسية فحسب وإنما تشمل حتى الامتدادات لمقاصد الدلالة المتوجهة .

إن مقاصد الفكر هي الأخرى بحاجة إلى التجربة كي تتمكن من تمرير الوقائع المنتظرة نحو البديهية، ومن ثمة تجد تجربة المعيش أهميتها وضرورتها ، فمن دونها تصير كل دلالة ساذجة وغير واضحة. إلى درجة أنه بإمكاننا القول بعدم جدوى البحث عن العنصر الثالث الذي بإمكانه لعب دور الوسيط بين الفكر والعالم. هذا ما عجل إعلان ليفيناص عن ضرورة تلقيه الفينومينولوجيا إذ وبعد اكتشاف عملية القصدية سار ليفيناص في بداية الأمر على خطى هوسيرل إلى غاية إقدامه على نشر عمله : بخلاف الأخر أو بعيدا عن الماهية. الفترة التي منحت له امتياز ما هو عملي تطبيقي على ما هو نظري تأملي . فبفضل القصدية لم يعد مجديا المرور على امتحان نقد المعرفة للتمكن من تحديد الموضوع بما انه تمت فعالية التنسيق القائم بين الفعل القصدي والحدس والتي تقوم بتحديد الموضوع بصورة مباشرة .

لكن على الرغم من ذلك نجد ليفيناص على غرار باقي الفينومينولوجيين يوجه اللوم إلى هوسيرل لعدم قدرة فينومينولوجيته الذهاب ابعد في بحوثه الفلسفية حول الحياة، ثمة نقص استشعره ليفيناص وبالأخص نقص في التعامل مع قضايا تجربة الحياة و المعيش كما أن هذه التجربة بقيت سجينة أسبقية النظري والذي حال بدوره دون السماح باكتشاف الواقع مثلما هو قائما في غياب الافتراضات . هذا الموقف من هوسيرل منح لليفيناص إمكانية شق طريقه الخاص داخل الفينومينولوجيا حيث سار به من فلسفة لا تزال تحتمي بما هو تأملي ونظري ( الفلسفة النظرياتية) **théoriser** أو عقلانية **intellectuelle** إلى فلسفة تسمح بانفلاق و إنبجاس البعد الإيتيقي . انطلاقا من هذا الانتقال سينجز ليفيناص نقده للهوسرلية باعتبارها أسست الفينومينولوجيا عقلانية سجنت ذاتها بداخل عالم نظري محاولة منها تصفية الواقع بواسطة التأمل والنظرية.

لكن اعتقد انه من الضروري الإشارة إلى أن موقف ليفيناص من الميزة ال"عقلانية للفينومينولوجية الهوسرلية لم تكن أبدا بدافع رفضها وإنما يجعل من الموقف العقلاني ، الطريق الذي يمنح لنا شيء من الاستقلالية ومن حرية فكرية على الرغم من إقرارنا بنقصه من خلال التعامل الضعيف مع القضايا العملية التي تلزمنا بها تجربة الحياة . وعليه فان لا مفر من الموقف النظري باعتباره الأساسي نفسه الذي تقوم عليه العدالة فلكي نكون منصفون يجب أن تحدث موازنة بين الحكم والأفراد هذا ما يقتضي استدعاء الفكرة ولمعرفتنا تم لإحساسنا إلى يتبقى بالمسؤولية .

لم تكن مهمة ليفيناص إقامة ايتيقا، وإنما العمل على البحث عن المعنى. ففي واقع الأمر لا يعتقد بوجود فلسفة تكون مبرمجة هو في نظر ليفيناص هو الأول الذي وضع فكرة برنامج للفلسفة مما لا شك فيه بإمكاننا إقامة انطلاقا من فكرة الوجه. لان هذا الأخير يقطع بصورة جذرية مع التوجهات الشمولية للفلسفة الحديثة، و التقليدية.

لقد شكل مجيء ليفيناص إلى الفينومينولوجيا إضافة خصبة الفينومينولوجيا ذاتها ، حتى وان كان ذات طبيعة انقلابية إلا انه ساهم في تفعيل وإثراء الفينومينولوجيا ، وتمكن يعد ذلك من إقامة فينومينولوجية مميزة لمساره الفينومينولوجي، و ربما كانت هده الوضعية من السمات البارزة الفينومينولوجيا ذاتها ، باعتبارها منهج بفكر تجاوزه . إن الفينومينولوجيا هي المنهج الذي يعلمنا كيف تتجاوز اطرها الخاصة بها ، منفلتون بذلك من الوقوع في شرك أو في فخ أرثوذوكسية فكرية مغلقة ونتمكن بدورنا من شق طرقا وإمكانيات مختلفة للبحث . من هذه الوضعية بالذات سيحصل ليفيناص التنقل على حدود الفينومينولوجيا .

لقد أدرك ليفيناص مثلما اشرنا نقص الفينومينولوجيا الهوسرلية الذي كانت تعاني منه . إذ حدث أن أغفلت بعض القضايا التي تم إقصاؤها من دائرة التفكير داخل الفلسفة لتقليدية فهي أي الفينومينولوجيا الهوسرلية عندما تأسست من منطلق مثالي ترنسندنتالي وكرست بالإضافة إلى ذلك الأنانة **Solipsisme** تكون بهذا التوجه قد ساهمت في الإبقاء على مفاهيم مثل الآخر: الجسد، الرغبة، الوجدانية، والأنثوي...، تنتظر اللحظة المواتية للبدء والتفكير حولها. ما منح بالفعل لليفيناص منفذا لتحاليل أصيلة هنا بالذات تكمن وجاهة المشروع الليفيناصي والمتمثل تحديدا في تطويره، وتفعيله لسؤال الآخر ، جاعلا منه سؤالا مركزيا لكونه يحمل القدرة على توسيع العالم.

تكمن إذن مهمة الفلسفة لدى ليفيناص في سعيها لإظهار التوجه الحقيقي للإنسان نحو العالم ، المرتبط أساسا بمبدأ الحاجة ومن تم يتمكن من تأسيس إقامته وعلاقته بالعالم والتي تمكنه بدورها من بعد الجوانية التي يمنح له إمكان التصرف والسلوك ، مانحا فسحة للآخر ذلك لأنه و في نظره كل استعمال العالم يتواجد موجها نحو الآخر . فإقامتنا فيه هي في عمومها إقامة لأجل الآخر لا غير. بما أننا مسئولون عنه مسؤولية مطلقة ، مسؤولية تعرف وجودها قبل الغير وقبل المعرفة وليس معهما . وعليه سأكون في اعتقاد ليفيناص مدعوا باستمرار إلى ضرورة فتح مسكني وإقامتي لأجله. فأنا دائم الترقب والانتظار ، أنتظر حلوله بيننا ،وقدومه. هذه الوضعية هي التي تدشن حقيقة وجودي في العالم .

لكن إقامتنا فيه لا يجب أيدا أن تكون مرتبطة كما جس المكوث والاستقرار وإنما ينبغي أن تكون دائما محكومة بها جس الانسحاب والمغادرة فالآخر لا وطن له لا هوية تحدده انه خارج كل تعيين على الرغم من انه يشكل هو الآخر أنا Moi لكنه أنا من دون هوية هذا ما جعل ليفيناص يتجه إلى القول انه ليس يوجد جهد من دون آخر وربما سيكون هذا الآخر مدركا بفضل جسده ومن تم سنتكون فلسفة ليفيناص تفكير الظاهراتية، للتذاوت مدركة انطلاق فقط من جهد متمو ضع situé متمو ضع على وجه الخصوص جنسيا ربما كان هذا الأمر منفذا للتوغل ال البحث في السؤال الأنثوي لدى ليفيناص لأنه ( آي الأنثوي) سيكون عنصر محاورته تجديد السؤال العام الخاص ببرانية الآخر **l’extériorité de l’autre** في المرئية، وكأن فكرة الآخر المحض ستكون مجرد عبث من دون ظاهرية.